

أصول الإصلاح الاجتماعي

للاستاذ محمد الخضر حسين

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

يعمل المصلحون على أن تكون شئون أممهم الاجتماعية في نظام وصفاء ، ولا تستقيم هذه الشئون ، وتخلص من كل كدر ، إلا حيث تكون الأمة قد استوفت وسائل القوة والمنعة ، وهى الارتواء من مناحل العرفان ، والرسوخ في مكارم الأخلاق ، والاعتصام بمجمل الائتلاف والاتحاد ، وتوفير الأيدي على العمل لكسب الأرزاق . وهذه الوسائل الأربع إنما تعود على النفس بظمانينة ، وتذيتها طعم حياة لذيذة متى سبقها إيمان يضرب بأشعته في كل سبيل .

ففاضل الأمم في مراق العزة والقوة ، يجرى على قدر تفاوتها في الإيمان والعلم وكرم السجايا ، ومثانة الاتحاد ، والسعى لاكتساب الطيب من الرزق .

أما الإيمان فهو النور الذى يسعى بين أيدي الجماعة يرد بها كل ورد عذب ، ويرتادها كل مرعى خصب ، وهو الوسيلة التى يتفون بها رضا الخالق جل شأنه ، وإذا ظفروا برضا الخالق ، وفقهم إلى كل عمل مجيد ، وجعلهم إذ يجارون غير المؤمنين هم السابقين ، وإذا تناضون غير المؤمنين هم الفائزين .

وقد دل التاريخ الصادق والمشاهدات المتواصلة على أن المتمين إلى دين حق ، لا يدرهم نحول ، ولا تهلو عليهم يد من سواهم إلا حيث يتضاءل الإيمان في قلوبهم تضائلا ينسيهم جلال علام الغيوب ، ولا يبقى لحكمته البالغة عليهم من سبيل .

والسياسة الرشيدة تعلم يقينا أن للإيمان الصحيح فضلا في تقوية صلوات الألفة والاتحاد وفضلا في تهذيب النفوس وانظام الأمن في البلاد ، فتوجه عنايتها إلى تربية النفس على تعظيم أمر الله تعظيما يتجه بهم إلى أفضل السير ، وأحمداء عاقبة ، وفي الحق أن من يضع في نفس الناشئ إيمانا مسندا إلى حجة ، إنما يبنى فيها أساسا للسيرة الزويدة ، والعواطف الكريمة .

وأما العلم ففريد منه الممارف التى طلعت من أفق النبوة الصادقة ، واستبظمتها العقول الناقبة أو ثمرتها التجارب الصحيحة ، وفضل هذه العلوم في استبانة طرق الفلاح ، واستكشاف ما في هذا العالم من أسرار ، وتوفير أسباب الراحة في هذه الحياة واضح بحيث يشهد به كل ذى باصرة ، أو أذن واعية ، والذي أرى التنبيه له في هذا المقام هو أن الشرف إنما جاء إلى العلم من ناحية العمل به ، فلو بلغ شخص الدرجة المتصوى في علم من العلوم ، ولم يكن لهذا

العلم في حياته العلمية من أثر، لكان هو والجاهل به سواء . فلا فضل للعالم بالتسريعة إلا أن يقف بجانب حمايتها ، ويأخذ نفسه بآدابها ، ولا فضل للعالم بالهندسة إلا أن يكون له قسط في تثبيت قواعد العمران والحضارة . ولا فضل لدارس الطبيعة إلا أن يضع يده فيما يجلب للإنسانية راحة أو يزيح عنها نصباً ، ولا يحق لدارس علم أن يعد نفسه في قيل أهل ذلك العلم ، إلا أن يستطيع تحقيقه في صور عمالية ، كما يفعل علماء الراسخون ، والطلاب الذي يقبل على العلم بدائية قوية من نفسه هو الذي يسير فيه إلى أقصى غاية ولا يرضى إلا أن يتجه به إلى الناحية الحيوية التي وضع ودون لإصلاحها .

وليس من شك في أن المعلم الذي يدرس علماً برغبة من نفسه ، هو الذي يصالح لأن يناط به العمل الذي يتصل بذلك العلم ، وهو الذي يرجى لأن ينهض به في غير سامة ، ويسعده عزمه على أن يقوم به أفضل قيام .

وأما أثر الأخلاق في رقي الاجتماع ، فإن كل خلق يسد نفرة في بناء المجتمع لا يسدها غيره ، فالحاجة إلى إقامة المشروعات الكبيرة ، نفرة لا يسدها إلا خلق السجاء ، والحاجة إلى دفاع البغاة نفرة لا تسدها إلا الشجاعة ورباطة الجأش ، والحاجة إلى حرية الدعوة إلى الحق ، لا يسدها إلا أقدام الدعاة ، وحلم أولياء الأمور وأنايتهم ، ولطامس لطجت الألسنة والأقلام بتجديد الأخلاق ، ونهوت بها من فضل في الصعود بالافراد والأهم إلى أوج السؤدد والكرامة . والذي يحتاج إلى ألمعية مهذبة ، وبصيرة نافذة إنما هو استبانة الطريق التي تسلك لتربية نشأتنا على الأخلاق المأجدة تربية تجعلهم يقدرونها حق قدرها ، ويتأفسون فيها كما يتأفسون في العلوم والفنون ، ولا يسعني هذا المقام إلا أن أقول :

إن المعاهد والمدارس التي يدرس فيها علم الأخلاق ، ويكون رؤساؤها وأساتذتها أنفسهم مثلاً كاملاً للأخلاق الراقية ، هي الكفيلة بأن تخرج لنا نساء نباهي بسوا أخلاقهم ، قبل أن نباهي بغزارة علومهم ، ورجاحة عقولهم ، وطلاقة ألسنتهم ، قال عمرو بن عبدة لمعلم أولاده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح ما تركت .

وأما الاعتصام بمجمل الائتلاف والاتحاد فإن في الناس من تنصر يده عن الوصول إلى حقوقه الشخصية ، ومآربه الحيوية ، إلا أن يعينه عليها قوم آخرون ، كما أن من مقتضيات الحياة الاجتماعية ما يستعذر القيام به إلا أن تتألاً عليه الجماعات الكثيرة ، والتعاون الفردي أو الاجتماعي إنما يصدر عن إئلاف وتعاطف يجعل الأمة كالبيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فإن تفرقت القلوب ضاعت المصالح الفردية ، واختل أمر المصالح الوطنية ، وصارت البيوت بحال القبور ، وإن كانت مفتحة الأبواب ، وسكانها بحال الجثث الهامدة : ولكنهم لا يستغنون عن الطعام والشراب .

وأما الثروة فتدخل في أصول الإصلاح من ناحية أن كثيرا من المصالح الحيوية لا تنقام إلا أن يبذل في سبيلها مال غزير ، ثم إن كثيرا من الأخطار الداهية لا يكفى في دفعها إلا قوة يسعدها الأغنياء بأموالهم قبل أن يسعدها الحكماء بأرائهم ، وإذا استطاع الفرد أن يعيش في قلة من المال وهو حافظ لكرامته ، فإن الأمة لا تعيش حافظا لكرامتها إلا أن يكون في خزانها أرويت مالها ما يسد حاجاتها ، ويكفل لها السلامة من كل قوة تحاول أن تسلبها حقها من حقوقها .

وشعر الناس في تقديم بزية المال ومساعدته لدى الممم الكبيرة على أن يدركوا من الحمد ما لا يدركه المثلون منهم ، كما قال أحد أدبائهم .

أريد بسطة مال أستعين بها على أداء حقوق للعلا قبل

وكذلك الأمم لا تدرك سيادتها كاملة إلا أن تضيف إلى ما لديها من بسطة العلم وسماحة الأطلاق بسطة في الأرزاق . وقد جعل الله تعالى لبسطة الرزق أسبابا ، وجعل تعاظم هذه الأسباب صالحة ممدودا في الطاعات التي يجازى عليها بالحياة الطيبة في الدنيا ، والنعم الخالد في الآخرة ، والزهد الذي يعد في جملة الفضائل لا يراد منه إثبات الفقر على الغنى في كل حال وإنما يراد منه طهارة القلب من التعلق بالمملكات والزينات تعلقا يدفع إلى الوصول إليها ولو من طرق خبيثة ، والتوكل على الله الذي هو شعب الإيمان المشعر إنما هو قوة اتجاه القلب إلى الخالق عند العزم على العمل ، حتى يسعده بالتوفيق ، ويده بالتأييد وشاهد هذا قوله تعالى "فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا أعزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين".

محمد الخضر حسين

تراميتم ، فقال الناس : قوم إلى الخذلان أمرهم ترامي !

تباعيتهم ، كأنكم خلایا من السرطان لا تجد الضماما

(شوقي)